أبراهيم عبد المجيد

# والآن : من الذي قتل هذا الرجل . . ؟

سائق الاوتوبوس :

قال لها منزعجا

ـ من فضلك .. ابعدي عن « الفتيس »

نظرت اليه مبتسمة .. حركت قدميها الى الخارج قليلا .. صرخ شاب في وسط المركبة :

ـ ليس مهما ان تدوس على قدمي .. المهم انك عندما تدوس على قدمي او قدم غيري تشعر ان هناك شيئا ما تحت قدمك ، وهذا الشيء ليس قطعة بارزة في ارضية العربة .. وبالتالي ترفع قدمك . اما ان تقف على قدمي كأنك تقف على لوح خشب ، فهذا يبعث على الجنون .

تعالت الاصوات :

ـ يا استاذ . هكذا ركوب الاوتوبوس ..

ـ المواصلات في الصيف نيلة !

ـ وفي الشتاء طين !

لكنها عادت الى موقعها ، وكان عليه ان ينقل حركة التروس . هد كفه .. وضعها فوق مقبض « الفتيس » شعر بلحمها الساخن تسري حرارته فوق ظهر اليد .. تنتقل الى ريقه فيجف .. الى غرائزه فتنشط . تحركت اصبعه فوق مقبض « الفتيس » .. استجمع قوته التي تكاد تتبعثر ونقل الحركة بان حرك المقبض الى الامام ثم مال به الى الخارج قليلا ثم اعاده الى الخلف فاذا بيده قد انحشرت بين فخذي الفتاة فوق الركبة بقليل . زمجرت صفارة المحصل .. تعالى صراخه يدعو السائق للتوقف .. فرمل السائق فرملة شديدة اضطر خلالها ان يسحب يده ليتحكم في عجلة القيادة . اندفع الركاب الى الامام .. تصادموا .. قال المحصل :

ـ لن تتحرك العربة الا اذا دفع ركاب السلم ثمن التذاكر ..

وطفق يحاول جاهدا المرور من بين كتل اللحم المتداخلة الى الباب حتى هبط السلم ووقف على ارض الشارع يحصل النقود .

قالت الفتاة للسائق :

ـ لا تؤاخذني .. الضغط خلفي شديد ..

« قال هو لفتاته :

ـ لماذا لا تسيرين معي ؟ لماذا نكتفي بهذا اللقاء الخاطف في المساء على بسطة السلم ؟. ان الوقت الذي اقفه معك لا يعدو دقيقة .

قالت :

ـ ابي واخي .

قال :

ـ وهل سنظل هكذا ؟ انسي اصافحك كما اصافح زميلا اقابله كل صباح .. مجرد مقابلة .. انني احيانا اقرف من مصافحة الزملاء اليومية ..

قالت :

ـ لا احب المشي في الطرقات ..

قال :

ـ سنذهب الى حديقة النزهة .

قالت :

ـ اخاف الحدائق ..

قال :

ـ ماذا تريدين بالضبط ؟

قالت :

ـ لا اعرف .. ماذا تريد انت ؟

مال عليها يقبلها .. فرت من امامه ودخلت ..»

وظلت صورة وجهها خائفة مذعورة .. صفراء شاحبة . ولون عينيها المخطوفتين عالق في مخيلته لا يفارقاه .. قال في نفسه « اللعنة على كل شيء » وقال لها :

ـ خذي راحتك ..

وصفر المحصل لكنه لم ينتبه ، فصفر ثانية واعقب الصفارة صوت الشاب الاول :

ـ اطلع يا اسطى .. المحصل صفر ..

فبدا يدوس على زرار المارش بينما سمع صوت رجل يقول ..

ـ نائم على اذنيه .

وقال الشاب :

ـ لا أعرف هل هو الذي يقود العربة ام هي التي تقوده ..؟

ويبدو ان الرجل لم يفهم شيئا فاستعان بالصمت على البلاهة ، بينما تأججت نار السائق . ولكنه وهو يحرك ذراع الفتيس صرك احتكاك اصابعه لفخذ الفتاة غضبه .. بل هدأ وحدث نفسه : « صحيح هل انا اقود العربة ام هي التي تقودني ؟ » ورأى الشارع الذي كان اول عهده به يهوى السير فيه بسرعة كبيرة مارقا بين المارة والعربات الكثيرة .. انه شارع النصر وامتداده في المنشية المزدحم بعربات

البضائع المستوردة والمهربة والمصرية ايضا والاف النماذج من البشر والاصوات المختلطة .. قال لنفسه :

« كيف اني اسير في هذا الشارع منذ زمن بعيد وكيف اني لم اذكره واره جيدا الا الان . ؟ هل ولت ايام المغامرة ؟ » . نظر للراع الفتيس فوجد نفسه لدهشته قد نقلها نقلة وهو لا يدري وان يده الان بين فخذي الفتاة تماما .. تمنى لو يستدير ليرى هذا الشاب الذي تحدث لكنه خشي ان يقع في خطأ .. ثم سأل نفسه لماذا لا يعود لايامه الاولى عندما كان يشعر انه كان يرضي شيئا في نفسه وهو يتلوى بعربته بخطورة في اشد زحام ؟ وبالفعل أدار وجهه ليرى الشاب . لكنه رأى سدا من الناس فعاد ينظر الى الامام واسرع بالسيارة اكثر . جنّ الركاب .. قالت امرأة :

ـ حذار يا اسطى انت معك ركاب .

لم يهتم .. عاد ينظر الى الخلف . ويرفع رأسه الى أعلى .. يمد عنقه كثيرا علّه يرى الشاب لكنه يرى سد البشر .. تحركت ساقا الفتاة فرفع يده من فوق قبضة « الفتيس » ووضعها عميقة مباشرة بين فخذيها . قالت له وقد تراجعت قليلا بطريقة لم تؤثر في وضع اليد كثيرا :

ـ لا مؤاخذة .

قهقه بصوت عال وقال :

ـ لا يهمك .

ـ ثم عاد يرفع رقبته ليرى ذلك الشاب . وبالفعل تمكن من ان يرى وجهه يطل من بين الجموع يبتسم له كانما يشجعه .صرخ الركاب .

ـ المحطة قالت .

لكنه كان طائرا بالعربة والناس في الشارع وحول عربات البضائع التي بجانب الطوار تهرول متفرقة امامه في اتجاهات شتى . صفى المحصل صفارة عادية بطيئة .. تعجب كيف سمعها من فوره ..وداس على الفرملة بشدة لكنه كان قد وصل الى مفارق الطرق وكان الترام يعبر المفارق .. لا يدري كيف كان هناك رجل بين الترام وعربته وكيف توقفت العربة امام جانب الترام المواجه بقليل جدا حتى ان ذلك الرجل حشر بينهما . سمعت صرخات داخل العربة والترام وفوق الطوار .

هل كانت الاشارة مفتوحة امامه ؟
هل كانت مغلقة ؟
واذا كانت الاولى فكيف اخطأ سائق الترام ؟
واذا كانت الثانية فكيف اخطأ هو ؟
وهل حقا قد اخطأ ؟

لا يعرف بالضبط ، لكنه يشعر ان هناك خطأ ما . وهو يشعر اكثر انه لم يخطىء .. وربما لاكثر من تسعين في المائة يكون الخطأ عند سائق الترام . اما ذلك الرجل الذي ضغط بينهما فهو لا شك مخطيء ، اذ ما الذي يجعله يعبر الطريق من هذا الموقع الخطر ؟. لكنه يبدو على كل حال كما لو كان لم يمت . ليهبط الآن ليرى الام ينتهي الامر ..؟

●

شرطي المرور :

عندما خرج من بيته في الصباح طرفت عينه .. بسمل وحوقل ووقف على الطوار امام الباب يريد ان يعود .. لكنه احس بالجو رائقا ونسمة طرية تبشر بيوم صيفي جميل . تساءل ، هل يعود فيكون قد خضع لخوفه من الفأل السيء لاعتقاده الخاطيء في طرف العين ؟.. الم يحن الوقت ليكف عن هذه العادة السيئة ؟ قالت له ابنته ..

ـ ما للعين والرمش يا ابي والغيب ..؟ هذه كلها خرافات قديمة

وضحكت ، ولانه يدللها كثيرا قالت :

ـ الرمش والعين لهما وظيفة واحدة هي الحب .

قال لها :

ـ هذا ما تعلمته في الجامعة ؟

وضحك ايضا .

لكنه حدث نفسه : ساستمر في طريقي فالطقس يبدو جميلا .خطا خطوة وتوقف .. وما علاقة الطقس بالغيب ؟ هكذا تساءل ، اليس هذا الامر كذلك .. أحس انه في مأزق .. تذكر صورة الامس .. عندما اصطدمت عربة بيجو مسرعة جدا بشاب كان يعبر الطريق .. اصطدمت به وهو فوق المكان المخصص لعبور المشاة والاشارة مفتوحة امامه . قذفته لاكثر من عشرين مترا .. توقفت العربة على بعد يزيد على الخمسين مترا ضاعت معالم الشاب وملأ الدم ارض الشارع .. وقف الناس مذهولين من عنف الصدمة وسرعتها . هبط السائق .. انشقت الارض عن الشرطة .. كان يرى السائق يلوح بيديه في عصبية من بعيد ..

عندما سأل زميلا له كان عند الحادث مباشرة اجابه :

ـ السائق من بلد عربي .. وقد اخرج مسدسا جعل يلوح به في الفضاء ويهذي بحديث القادر .. كان يقول انه مستعد لدفع ديته من الف جنيه الى عشرة الاف ..

قالت له ابنته عندما عاد وراته مهموما منكسرا .

ـ اياك ان تكون قد نقلت من المنشية الى شارع الخديوي . لقد قتلت عربة يقودها رجل عربي شابا صغيرا . . أتعرف يا ابي ماذا فعل السائق ؟ اخرج من جيبه رزمة اوراق مالية وقال انه مستعد لدفع ديته مهما كلفته ومن حسن حظه ان الارض انشقت عن البوليس الذي حماه من الجمهور .

نظر اليها قليلا ثم اطرق مستغرقا في حزنه .. هل حقا ما تقول ؟ ولم يشأ ان يخبرها عن الحادث الذي وقع امامه في المنشية.

وكانما صرفته الذكرى عن المأزق الذي تردى فيه فأخذ طريقه مسرعا الى عمله . وما هو الا وقت قصير وكان جالسا في الكشك الزجاجي المرتفع عن الارض ليكشف الميدان وحركته .. عندما وضع يده على اول زر تذكر ان عينه قد رمشت في الصباح .. قال لنفسه .. غريب هذا الامر .. ثم جعل ينظر الى الميدان . رآه يختلف عنه كل يوم ، والحقيقة انه لم يكن يراه من قبل .. كانت رؤيته قد تحددت في لوحة الازرار التي امامه والاشارات .. لكنه لم يشأ ان يسبب لنفسه الما ويواجهها بحقيقة انه لم يكن يرى الميدان وانه يبدو كما لو كان يراه فقط لاول مرة رغم طول عمله فيه .. كانت اجساد الرجال صغيرة واجساد النساء كبيرة .. تعجب كيف تساهم الطبيعة في مساعدة النساء على الخداع . تذكر انه وهو شاب كان يرى الفتاة من بعيد طازجة متفجرة وعندما تقترب يراها صغيرة ناشفة! لم تكن الفتيات في زمنه يتعرين كما هن اليوم . لكنهن ايضا كن مغريات .. وكانما قصة الرجل والمرأة اغراء دائم .. وابتسم .. لكنه رأى العربات تسير بطيئة في ارتال متوالية تكاد تضارع طوابير البشر السائرة على الطوار . وانقبض وجهه لانه رأى نصف عربات الملاكي التي تمر امامه من ماركة « بيجو » تقريبا .. كان يرى كل عربة بيجو حادثة كبيرة . ثم هذا الترام الذي يخرج من الشارع العمودي على الميدان كانه نعش لو قدر وتعطلت واحدة منه سيكون يوما له شأنه. لا يعرف لماذا عقد مقارنة مع الانسان والعربة ..

الانسان يقود العربة ..
لكن العربة تستطيع قتل الانسان ..
لكن العربة ايضا لا تقتل الانسان الا لخطأ ..
وهذا الخطأ غالبا ما يكون في المرور ..

اذن هو ضلع كبير في هذا الخطأ ..
انه ينظم حركة الشوارع لكن معه دائما دفتر المخالفات ..
اذن ماذا يحدث لو لم يقم بتنظيم الحركة ؟

لا شك أنه لن تقع مخالفات .. فلن يكون هناك من يقرر المخالفة .. ثم أنه منذ زمن بعيد يقوم بهذه المهمة ومن يومها لم ينقطع عن الكتابة في هذا الدفتر .. اذن ماذا يحدث لو ترك العمل قليلا يسير وحده ؟ لا شك أن الناس والعربات سينظمون انفسهم بانفسهم .. بالضبط كما تراهم مزدحمين حول عربات البضائع دون شكوى وكما تراهم الان يخرجون من المحلات ويدخلون اليها ويقفون ويسرعون دون أن تقع بينهم حادثة أو لمحل أو عربة وهكذا سيفعلون فيما يختص بحركة المرور .

وترك لوحة الازرار .. امسك بجريدة وجعل يقرأ ..
« حادث مؤسف يقع لمترو القاهرة .. المترو يسير بدون سائق ويقتل ويصيب عددا كبيرا من الناس »

« حادث مؤسف على مزلقان بنها . قطار يصطدم بعربة اسعاف تحمل سيدة في حالة وضع ومعها شابان من اسرتها .. القطار يدفع الاسعاف امامه عشرات الامتار ويقتل كل من بداخلها »

« اثنان من الخطرين على الامن يخرجان ليلا في شارع سليمان بالقاهرة ومعهما سيفان يهددان بهما المارة ويسلبان اموالهم »

وسمع صفارات العربات تتوالى .. نظر الى الشارع فاذا به يرى رتلا طويلا من العربات تتوقف في الشارع المواجه بينما عربات الشارع العمودي تسير في طريقها .. اغلق الاشارة على الشارع العمودي وفتحها على الشارع الاول .. أخذت العربات تتحرك في تثاقل ثم تسرع خلف بعضها .. اذن هو هام جدا .. لقد ادرك الان انه لولا وجوده لوقعت كوارث عظيمة .. لكن لا ، المسألة انهم اعتادوا ان يروا الاشارة ويسيرون على ضوئها .. فلو ازيلت الاشارة او وقع عليها عطب لاعتادوا ايضا على ذلك .. واستهواه ان يعبث قليلا في الاشارات .. أخذ يضغط على الازرار دون مراعاة الوقت المناسب .. كان يرى حركة العربات عندما تتوقف ثم تبدأ في السير لتتوقف بعد امتار قليلة لتعود وتسير ثم تتوقف .. انتابته نوبة هستيرية فجعل يضحك .. رمشت عينه فجأة فاعتدل في جلسته .. اغلق طريق الترام وفتح اشارة الشارع المواجه .. سمع صراخا عاليا .. ما هذا ؟ اوتوبيس يصطدم بترام .. الناس تشير الى شيء ما بينهما .

رجل ؟
كيف حدث هذا ؟
هل اصيب سائق الترام بعمى ؟

لكن لماذا لا يكون الخطأ عند سائق الاوتوبيس ؟
ان صوت احتكاك عجلات الاوتوبيس بالارض مزعج .. لا شك ان السائق كان مندفعا بسرعة شديدة .. لكن هل كانت الاشارة معه؟ ومن يدري ربما كانت ضده ؟. اذن لينظر الى اللوحة امامه .

كانت اصابعه خلال ذلك قد انتقلت فوق اللوحة عدة مرات .. اذن هو لا يستطيع ان يعرف من المخطىء .. سائق الترام أم سائق الاوتوبيس ؟ على كل حال فخطأ القتيل اذا كان قد مات اكيد .. اذ ما الذي يجعله يعبر الطريق من هذا المكان الخطر ؟. اخذت عيناه تطرفان بشدة وشعر بالخوف يسري في كيانه .

●

سائق الترام :
قال مفتش الترام لزميله :
ـ رحم الله ايام الترام البلجيكي .

قال زميله :
ـ كنت تلف الاسكندرية كلها بستة مليمات ..
ثم وجه حديثه للسائق ..
ـ هل تذكر يا سلامه ..؟
حرك سلامه رأسه بالايجاب دون ان يتكلم

قال المفتش الاول :
ـ اقول ذلك لابني يقول لي ساخرا وكانت الماهية جنيهين في الشهر

قال المفتش الثاني :
ـ ويقولون اننا سبب النكسة .. هل نحن الذين كنا نحارب في سينا .. ؟ ما رأيك يا سلامة ؟

كان سلامة منشغلا في النظر الى المرآة الجانبية .. اطمأن ان ركاب المحطة قد صعدوا جميعا .. بدأ السير بالترام .

« قال له ابنه منذ ستة اشهر :
ـ انا اعرف ان ذراعي يمكن معالجتها .. ان اصابعي يمكن ان تتحرك .. لكنهم لا يصدقون ..
قال سلامة :
ـ ليس امامنا الا الشكوى .. ارسل الى الصحف .. اشرح لهم حالتك ..
قال الابن :
ـ ارسلت .. قلت لهم انني من ابطال العبور .. قلت لهم ان قنابل البلى قذفها الاسرائيليون .. قلت لهم اني لم اترك موقعي في الدفرسوار .. قلت لهم اذا كان الجراح الاسرائيلي قد افسد شيئا وانا في الاسر فلا يعني ذلك ان يصمت الجراح المصري »
قال المفتش الاول :
ـ انظر .. أحضرنا عربات جديدة من الدنمارك ولا فائدة .. الناس يا اخي كالارانب ..
قال المفتش الثاني :
ـ والمصيبة انك تجد من لا يعرف حتى الان ان الصعود من الباب الخلفي ؟
ثم وجه حديثه الى سلامة :
ـ ماذا فعلت يا سلامة امس مع الرجل الذي اراد الصعود من الامام بالقوة ؟
لم يرد السائق .. كانت عيناه شاخصتين الى بعيد .. ربما كان مشغولا بالطريق امامه .. وربما كان مشغولا بشيء اخر .

قالت امرأة جالسة وراء السائق مباشرة لرجل جوارها :
ـ كل شيء اصبح موحدا .. الاوتوبوس موحد .. الترام موحد .. انا مرتب زوجي ملاليم .. منذ عشرين سنة ومرتب زوجي ملاليم .. تصور اوتوبوس واحد درجة ثانية في الخط كله ولا يوجد ترام واحد درجة ثانية !؟
« قال له ابنه منذ شهر :
ـ لا يوجد رجل واحد يسمع لي يا ابي .. يقولون هكذا ستظل ذراعك .. علاجك في الخارج وربما لا تجده هناك ايضا .
قال لابنه :
ـ وماذا عن الصور التي نراها في كل صفحة جريدة عن جرحى الحرب الذين يعالجون اعظم علاج وفي الخارج ايضا .. هل هي صور لاشباح ؟. انت كسول يا محمد .. كسول جدا .. »
وكادت الدموع تطفر من عينيه لانه كان يعرف انه يكذب على ابنه ..

قال المفتش الاول :
ـ انظر الى المحصل .. لقد وضع الطعام امامه وجعل ياكل .. ترك زميله المساعد الجديد يحصل ثمن التذاكر .. هل تستطيع ان تفعل له شيئا الان ؟

قال المفتش الثاني :
ـ لو حاولت منعه سيشتمك .. واذا جازيته سيضربك .. واذا فصل ستعيده المحكمة .. فعلا رحم الله ايام الترام البلجيكي ؟
قال الاول :
ـ ربما مع الانفتاح ينصلح كل شيء .. على فكرة الانفتاح هذا صحيح ـ وجعل يفرك كفيه ـ راس المال سيعمل من جديد ..
قال الثاني :
ـ سيعود مبنى الاتحاد الاشتراكي بورصة من جديد ..!
قال الاول :
ـ فرغلي باشا بدا يظهر في الصورة .. كثيرون ظلموا يا اخي..
قال الثاني :
ـ البركة في ستة اكتوبر .. !
ثم انفرق في الضحك .. ثم حول حديثه للسائق ..
ـ اليس كذلك يا سلامه ؟

لكن السائق لم يرد .. كان منشغلا بالنظر مرة ثانية الى المرآة الجانبية ليطمئن على صعود كل ركاب المحطة .. لم يكن يامن لصوت الجرس الذي يدقه المحصل علامة للسير ..

« قال ابنه منذ اسبوع :
ـ تصور يا ابي انني عندما ذهبت لاقابل الرجل الذي قلت لي انه سيحل المشكلة كان في انتظار ضيف كبير .. لا اعرف اهو عربي ام اجنبي .. مليونير فيما يبدو .. اشتبهوا في يا ابي .. اخذوني الى نقطة البوليس ..

نظر الى ابنه متعجبا لانه كان يعرف ان حديثه صادق.قال الابن:
ـ كان الضابط شابا .. قال لي : « يبدو انني رايتك من قبل » قلت له : « انا محمد سلامه الذي قبضتم عليه في اخر مظاهرة قبل حرب اكتوبر .. كنت في السنة النهائية بالهندسة اصيبت ذراعي وكتفي في الحرب واسرت .. » قال لي : « لماذا لا ترسل الى الصحف والمسئولين طالما لم ينفع العلاج السابق .. ؟ » قلت له ضاحكا : « البريد يضطهدني ولا يوصل الرسائل ..! » قدم لي سيجارة وفنجان قهوة يا ابي .. قام يابي وقبلني .. ودعني وهو يعتذر اسي .. بكيت وانا خارج من باب القسم .. لكني بعد ذلك سالت نفسي .. لماذا تبكي ؟ الامر لا يستحق الا الضحك .. ! ها ها ها .. ها ها ها هاي .. اضحك يا ابي .. اعطني سيجارة لو سمحت .. ماذا يعني ان اكون مهندسا مشلول الذراع .. لا شيء .. لا شيء بالمرة .. ها ها ها هاي .. اضحك يا ابي . اضحك ارجوك »

وضحك الاب .. لكن لانه كان يشعر انه كاذب . قدم لابنه سيجارة واسرع الى دورة المياه يتوضا ليصلي .. قالت المرأة التي تجلس خلفه مباشرة في نفسها « والله ولا عشرة اكتوبر »
قال المفتش الاول :
ـ مالك يا سلامه لا تتحدث .. طبعا تنفذ تعليمات لافتة « ممنوع التحدث مع السائق » يا عجوز !

وقهقه ضاحكا بصوت عال ثم وجه حديثه الى المفتش الثاني :
ـ لانه من ايام الترام البلجيكي ـ واشار الى السائق ـ لذلك يحترم التعليمات ..
جاء صوت المحصل من الخلف ..
ـ المنشية .. استعدوا ..

كانت المحطة على بعد امتار قليلة .. اقترب البعض من الباب الامامي .. نهضت المرأة الجالسة خلف السائق واستعدت للهبوط .. جاءت المحطة لكن الترام لم يقف .. صاح الركاب المتجمعين قرب الباب في وجه المفتشين والسائق .
المحطة يا حضرة المفتش .. المحطة يا اسطى ..

نظر المفتشان الى السائق .. كان شاخصا بعينيه الى الميدان الواسع الذي ان يلبث ان يخترقه الان بعد خروجه من هذا الشارع الضيق .. كانت عيناه ناريتين .. كان وجهه متقلصا بطريقة مخيفة.. كانت اسنانه تطحن بعضها بغضب هائل .. نظر المفتش الاول لزميله مندهشا مذعورا .. صرخت المرأة :
ـ المحطة يا ناس .. رجلي تعبانة ..

نظر المفتشان مرة اخرى الى السائق .. حولا وجهيهما بسرعة الى الركاب .. انطلق في الضحك
ـ ها ها ها هاي .. هيء هيء هيء هيء .. معلهش .. المحطة القادمة ليست بعيدة .. المشي رياضة .. ها ها ها هيء هيء هيء هيء ...
هذا بينما كان المحصل يصرخ في الخلف ويضغط ضغطا متواصلا على الجرس ويصرخ باعلى صوته :
ـ المحطة يا عم سلامه .. المحطة الناس تعبانة .. المحطة الثانية بعيدة يا رجل ..

لم يكن السائق يسمعه .. خرج الى الميدان .. لم يكن يسير مسرعا بالترام بل كان بطيئا للغاية كانما يضغط بعجلاتها شيئا فشيئا قدرا لا يريد ان يبقي له اثرا .. عندما اصبح الترام في منتصف الشارع المتقاطع مع سكته الحديدية الدائرة سمعت صرخات الركاب جميعا .. قفزوا من فوق مقاعدهم لكن جداري الترام كانا امامهم .. صاحوا مذعورين :
ـ الاوتوبوس يا اسطى ..

سمعت صرخات فوق الطوار وارتفعت اذرع بشدة في فزع مشيرة الى الحادث .. توقف السائق .. حركة لاارادية جعلته يتوقف .. انه هو نفسه لا يعرف كيف توقف .. مال بوجهه الى الامام .. اسند راسه على سطح صندوق الاجهزة ..

« قال له ابنه امس :
ـ يبدو يا ابي اني لن استطيع ان اضحك كثيرا .. ان اضحك فعلا .. المصانع الجديدة يا ابي سترتفع في كل مكان .. لن يكون لي مكان فيها وانا الذي رفعتها .. لماذا يا ابي ييأس المعالجون عندنا سريعا ؟ يجب ان يحاولوا علاجي من جديد .. اما ان يبتروا ذراعي او يجدوا علاجا لها .. اريدهم فقط ان يقنعوني انه لم تعد هناك محاولة الا حاولوها .. انهم ييأسون سريعا يا ابي .. هل كنت مخطئا لاني لم اترك موقعي وانجو .. قل لي يا ابي :.. قل لي ... »

وكان قد امسك بذراع ابيه بيده الاخرى وجعل يهزها بعنف ..

. . . . . .

القتيل :
قال لزميله عند مغادرتهما لمحطة قطار الاسكندرية :
ـ هيا نركب الترام من المنشية ..

انزعج زميله والتفت اليه مندهشا .. قال :
ـ المنشية بعيدة يا عبدالغني وثمن الترام من هنا اوهناك واحد..

زام عبدالغني وبدا كما لو كان يلوك لسانه في فمه .. كانت هذه عادته عندما يريد ان يعبر عن امتعاضه قال :
ـ يا رجل حرك ساقيك قليلا ..

قال زميله :
ـ راحت علينا يا عبدالغني ..

جذبه عبدالغني من ذراعه وسارا معا ثلاث خطوات سريعة بالضبط ثم تباطأت السيقان .. قال عبدالغني في نفسه « معك حق يا علي ..

ثمانية وخمسون عاما ليست بالقليل » .. اتسعت عيناه سرورا .. كان يود ان يرى ميدان المنشية اليوم .. واليوم بالذات .. ولا يعرف لماذا يشعر برغبة محتمة ان يراه اليوم بالتحديد .. كل ما يعرفه انه يشعر بانه ان لم يره اليوم فربما لن يراه فيما بعد ابدا .. وحقيقة انه لم يكن يريد ان يرى الميدان نفسه . لكنه ود ان يرى تمثال « محمد علي باشا » ذلك الرجل ذو الراس المهيب الذي يركب فرسا منطلقا ويتطلع الى بعيد .. عندما وفد الى الاسكندرية اول مرة وكان ذلك ابان غارات الالمان عليها .. : كان يرى اهل الاسكندرية يهاجرون على عربات الكارو الى محطة السكة الحديد ، ومنها تقلهم القطارات المجنونة يقودها الجنود الهنود الى الارياف . لكنه هو ـ وكان يشعر يومها ان القدر يضطهده ـ قد نقل لضرورات العمل من بلده الى الاسكندرية .. وكان يومها عامل دريسة يفرق في المازوت والقضبان والفلنكات طوال النهار .. لم يكن قد ضعف بصره واصبح ( شرك ) كما قالوا له في الكشف الطبي ثم حولوه الى ساع في مكاتب المحطة .. كان يومها يرى تمثال محمد علي باشا وحده تحت السماء وفوق الارض .. كان يقف تحته يساله « لماذا لم تهاجر ايها الرجل » وكان ينسى انه مجرد تمثال .. وكان يقول له .. « انا لا اعرفك لكني اشعر انك كنت رجلا جبارا والا ما رفعوك فوق الارض وما تركوك وحدك امام الغارات »

قال له ابنه منذ سنوات لا يذكر عددها : « ـ اخذنا يا ابي في المدرسة درسا عن محمد علي.. كان رجلا واسع الطمع . تصور : كان يريد بناء امبراطورية مصرية ـ ولم يفهم الرجل معنى امبراطورية ، واحس ان ابنه يضحك عليه ولم يشا ان يساله حتى لا يبدي جهله فزام وبدا كما لو كان يلوك لسانه ـ وكان ياخذ حبوب المصريين وزراعتهم ويسخرهم في شق ترعة المحمودية ـ وعاد يزوم مرة اخرى .. كاد يقول لابنه ( هذا رجل طويل العمر ) لكنه ابتسم ليرضي الولد وهو اليوم لا يعرف ماذا حدث له .. لقد كبر فجاة .. فجاة بالفعل .. لقد ظل في عينيه طفلا صغيرا يحمله على كتفه ولم يعرف انه رجل الا عندما قال له :« ابي اريد ان اتزوج » . نظر اليه متعجبا .. شعر بفرح طاغ وحزن يتسرب الى نفسه .. لكن الابن قال: « انني احبها وهي تحبني وسنتزوج ». زام كعادته ولم يعلق بشيء لكنه قال في نفسه « الا استحق ان تنتظر حتى اشبع منك » ثم ابتسم. وهو اليوم يود ان يرى ذلك الرجل الذي كان واسع الاطماع والذي يقف متعاليا كانما يعلق سيفا على رقاب البشر .. يريد ان يعيش تلك اللحظة التي كان القدر احمق فيها ويبدو كما لو كان قد قصد اضطهاده هو بالذات .»

قال زميله :

ـ كيف حال الاولاد ؟

نظر اليه بطرف عينه اليسرى متعجبا .. ماذا جرى لزميله ..؟انه جاره ايضا ويمضي اكثر السهرات عنده بل انه كان في منزله ليلة امس بالتحديد .. قالت له زوجته بعد ان خرج زميله :

« البنت كبرت يا عبدالغني .. شبان الحي يدورون حول المنزل طوال النهار .

لم يرد وزام ثم اطرق .. قالت زوجته :

ـ عسى ان ياتيها الله بابن الحلال ..

قال لها وهو مطرق :

ـ اين الاولاد يا ام جميلة .. ؟

قالت مندهشة :

ـ اي اولاد يا رجل ؟ اسماعيل تزوج .. ابراهيم في الجيش .. حسين ترك عمله وسافر الى ليبيا .. ماذا جرى لعقلك ؟

وابتسمت لانها ظنته يتدلل .. لكنه زام وبدا كما لو كان يلوك لسانه في فمه ثم ابتسم ونهض في اعياء .. اتجه الى سريره منكسرا .. وضع راسه تحت اللحاف وترك دموعه تسيل .. جاءه صوت زوجته ..

ـ الجو حار .. كيف تطيق الغطاء ؟

قال لها وقد حاول جهده ان يتحكم في صوته حتى لا يبدو مشروخا..

ـ انا بردان يا امراة » .

قال زميله :

ـ صغير انت حتى تقف لتتفرج على الميدان ؟

لكنه لا يدري لماذا ذكره التمثال بصورة مديره فجاة وهو يهبط السلم يهتز كرشه امامه .. قال لزميله :

ـ تصور انه لا يدفع ثمن المشروبات ابدا لمتعهد البوفيه .. لذلك لا يتغير المتعهد رغم قرف الموظفين . . وهم بدورهم يزيحون هذا القرف علينا ..

قال زميله وقد ادرك اخيرا ان عبدالغني يشخص ببصره الى التمثال :

ـ من تقصد ، المدير ام التمثال ؟

قال عبدالغني ولم يحرك عينه عن التمثال :

ـ التمثال !

وخطا الى الامام يقطع الشارع الذي يفصله عن التمثال .. صاح زميله ..

ـ انتظر يا رجل ..

قال عبدالغني في نفسه ( لماذا لا تذكرني بايام رؤيتي الاولى لك عندما كنت وحيدا واشعر ان الناس جميعا معي .. ؟ عندما كونا يهاجرون واشعر ايضا انهم معي .. ارجوك ان تجيب والا ساحتج عند المسئولين متسائلا لماذا يبنون دائما تماثيل للظالمين ؟ )

صاح زميله صارخا :

ـ الترام يا رجل ..

لكن الترام كان محاذيا له وهو يستدير ..

صرخ زميله بصوت اعلى :

ـ الاتوبوس

نظر عبدالغني يساره .. راى الاوتوبوس يقبل نحوه غادرا يكاد يركبه .. انحرف الى اليمين .. سد عليه الترام الطريق .. سمع عبدالغني صوت احتكاك عجلات الاتوبوس في الارض سكينا في راسه وصراخ البشر مطارق مروعة ، شعر بشيء صلد ينكفيء على ظهره ..

« كانت ضربات سياط الجلاد الاسود فوق ظهره عندما كان مجندا بوادي حلفا تئن لها عظامه ».

احس بشيء ما داخله ينكسر .. وشيء ساخن ينسكب في جوفه .. كان وجهه الان مقابلا لنوافذ الترام .. راى الركاب المذعورون وجها مبتسما منطبقا فوق الزجاج متسائلا ..

القاهرة